الخطوط المشتركة لاعداء الانبياء

المحاضرة الثانية والثلاثون لفضيلة الشيخ سليمان المدني

قال الرسول (ص) «الكفر ملة واحدة» ومعناه إتحاد موقفهم من الدعوة الالهية التي يحمل الانبياء لواءها، ويذدون عن حياضها، والدعوة الالهية هي الدعوة المتمثلة في الاسلام، وهي دعوة واحدة على اختلاف الازمنة وتعدد الاصول، وهي دعوة واحدة مهما تعددت أساليبها، واذا كانت دعوة واحدة، فلا يحتمل تعدد نقيضها، فان نقيض الشيء لا يكون الا عدمه المقابل له، ودعوة الانبياء تقابلها الدعوة الشيطانية، وهذا التقابل بين الدعوتين هو من قبيل تقابل الوجود والعدم، وليس من باب تقابل الاضداد والامثال، فليس للشيطان هدف الا الحيلولة بين أبناء آدم والتبين لله كما يحب الله لهم، ثم لا يبالي بعد أن يكسبهم هذه النعمة ماذا يكون عليه الانسان من إعتقاد، ولا يكترث بما يربط به نفسه من التزام، هذه الوحدة بين ما يسمى بأنواع الكفر علتها واحدة، ومصدرها واحد وهو الشيطان، ووحدة الهدف وهو ازالة الايمان، ولم يبق الا الاختلاف على الاساليب والوسائل الموصلة الى هذا الهدم، او اختلاف أرباب هذه الاساليب، وأصحاب هذه الفئات (أي زعماء هذه الفئات) على المصالح الخاصة.

واختلاف أساليب الكفر وطرائقه انما ينشأ من عزم الشيطان عن ايجاد حائل يصل في الكثافة الى أن يحجب النور الالهي عن الناس بدرجة واحدة، وفي ارض واحدة، لذلك يبذل جهده ليلا ونهاراً في ايجاد السدود التي تمنع الانسان عن رؤية النور، ويعطي كل انسان ما يلائمه من هذه الحلول في نظره، ومن هنا وجدت الاختلافات بين اتباع الشيطان، وتعددت الطرق، وكثرت النماذج، وتباينت التسميات، لكن الحقيقة شيء واحد هي عبادة الشيطان، وعلى هذا الضوء نستطيع ان نقدر التعاون الذي يحصل بين الفئات المتصارعة من الكفر ضد دعوات الانبياء، مثال ذلك، التعاون الذي حصل بين مشرك قريش بل مشركي العرب عامة وبين مردة اهل الكتاب من اليهود في شبه الجزيرة العربية ضد محمد (ص)، والفئة التي آمنت به، ولم تمنع تلك المشاحنات العنصرية بين العرب واليهود من هذا التعاون، توحدتهم هنا هي وحدة الموقف تجاه الانبياء، وليس المقصود انهم فئة واحدة، أو مذهبا واحدا، او كفرا واحدا، واذا كنا في هذه الدراسة مضطرين ونحن نريد ان نتبين الخطوط العامة المشتركة التي يقف فيها أعداء الانبياء الى تقسيم دعوات الكفر باسمائها الخاصة، وعناوينها المميزة، فلا يعني ذلك ان موقف احداهن سيكون خيرا من موقف الاخر، وفي حدود تتبعي القاصر للآيات القرانية نجد ان القرآن على الرغم من انه يعطي صفة الشرك الى اغلبية فئات الكفر فانه بحسب ميزاتهم يقسمهم الى مشركين، ومستعلين بغير حق، وحملة الافكار الالحادية، واولئك الذين يتشبثون بالعرق واللسان، واخيرا أهل الكتاب اي اتباع الانبياء الذين انحرفوا عن خططهم، واخذوا يحرقون الكتب، فهناك اربعة تقسيمات عامة لاعداء الانبياء، ولتبين كل فئة من هذه الفئات على انفراد حتى ننظر فيما اذا كانت تشترك كلها في خطوط متقاربة او متوازية او متحدة.

اولا: المشركون وعبدة الاوثان، فغالبية هذه الفئة تتكون من الجهلة والرعاة الذين لا يرغبون في تبديل ما هو الموجود، وهذه الغالبية في الواقع هي المادة الخام للمستعلين، واتباع الشهوات في حرب الدعوة الاهلية هذه الفئة مبررها في رفض النبوة وحرب الدعوة الالهية ان هذه الدعوة تدعو الى نبذ الاصنام، وفي هذا تخطئة للآباء وقالوا انا وجدنا اباءنا على ملة وانا على آثارهم مقتدون ...» فالمبرر الوحيد والاكبر الذي يعتمد عليه دعاة عبادة الاصنام في رفضهم النبوة، والدعوة الالهية هو عدم الخروج عما سنه الاباء، «واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله، قالوا بل نتبع ما الفينا عليه اباءنا..» وهذه الفئة كما نشاهد مطمئنة قاطعة الى صواب كل ما سنه الاباء من مواصفات واعتقادات وعادات جازمة بصحة كل اقوال هؤلاء الاباء، ولذلك فهي ترفض الخروج من عهدتهم، وتصر على متابعتهم في كل مناحي الحياة العقائدية والعملية، واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها اباءنا والله امرنا بها..» وهم يستغربون ويتعجبون من دعوة الانبياء الى توحيدا لعبادة الله «أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لامر أجاج...» قالوا اجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد اباؤنا، فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين..» هذه الفئة تتكل على التقليد، فهي وكلت زعماءها ليقوم عنها بمهمة التفكير واختيار الاصلح، وهم الذين يعبرون المبررات لهذه الفئة، هذه الفئة لا تحتاج ان تفكر مطلقا في دعوة الانبياء أهي صدق ام كذب مادامت قاطعة، جازمة بصحة ما يقول الاباء على غموض في مفهوم الاباء في كل الايات التي تعرضت لكل الاباء، فهم الاباء النسبيون ام الروحيون الذين يتمثلون في خدمة الاصنام والزعماء والكهنة والكبراء، كما ترشد الى ذلك آيات كثيرة، «انا اضلنا كبراؤنا..» وكما يشير القرآن الى تحاور اهل النار في آيات كثيرة من ان المستضعفين يتبرأون من المستضعفين، وهؤلاء الاباء على استعداد لخلق المبررات التي تمنع العامة من ان تتنبه فطرتها من ان تحس بحرارة النور الالهي، واذا كانت قضية الخلق والايجاد مما لاسبيل الى تبريره، لا تتمكن الغالبية ان تنكر فطرتها في احتياج الممكن الى العلة، فغالبية الناس لا تستطيع ان تصل الى حد الالحاد، ولا يمكن الادعاء لها بان السموات وما فيها، والارض وما عليها من خلق هذه الاحجار الجامدة، لذلك لابد من اعطاء العبادة الصنمية تفسيرا يتعقله العامة، وهو ان هذه الاصنام اشياء مقدسة، وهي مجرد وسائل تقرب الى الله . «ولله الدين الخالص وحده ، والذين كفروا ما تعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى..» وهؤلاء الانبياء انما يدعون الى نبذ عبادة الاصنام، لان هذه الاصنام لما كفروا بها قد اضرتهم، لذلك اخذوا يحاربونها ويدعون الناس الى نبذها تشفيا وحقدا، «ما نراك الا اعتراك بعض الهتنا بسوء...» وهؤلاء الانبياء انما يحاربون عبادة الاصنام لانهم طلاب رئاسة وزعامة، ولا يمكنهم التوصل الى الزعامة والرئاسة الا بنبذ ما عليه المجتمع من عادات وتقاليد واعتقادات والتزامات، «قالوا اجئتنا لتافكنا عما وجدنا عليه اباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض..» وايضا هؤلاء الانبياء بشر، فيعقل ان يرسل الله بشرا الى بشر «ابشرا مثلنا يهدوننا..» «قالوا ما نراك الا بشر مثلنا..» «مال هذا النبي يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا انزل عليه كنز او جاء معه ملك ظهيرا...» واذا لم تجد كل هذه المبررات في اخماد وهج الفطرة واطفاء شعلتها، ودفنها في رحال الجهل والشبهات فلابد من التمعن في صياغة الشبهة بحيث تبدوا في نظر الجاهل ان ملهمة للانبياء، فلما كان الانبياء يقولون فيما يقولون ان الله ملك السموات والارض وانه قادر على ان يفعل كل شيء وانه لا يحدث شيء في السموات والارض إلا باذنه فهذا الشرك بارادته واذنه ومشيئته «قالوا لو شاء الله ما اشركنا به ولا اباؤنا من قبل...» ثم ان هؤلاء الانبياء يتصلون بالاجانب ويستسلفون منهم الافكار ويأخذوا عنهم الاراء، ليسلفوا الاجانب على خيراتنا ومقادرنا (ان هو الا رجل افتراه واعانه عليه قوم آخرون..» وان ما نشاهده من آيات خارقة لما جرت عليه العادة والنواميس الطبيعية ليس الا سحرا، «قالوا ان تتبوا الى رجلا مسحورا، وان الانبياء في هذه الافكار المنسقة، والتعليمات المنسقة التي لا تضر فيها، اذا كانت هكذا لانهم شعراء يحلقون في الخيال، ويستطيعون ان يصيغوا الكلام صياغة فنية، مؤثرة في القلوب، وهذا الشاعر آياته تمتد الى امد ثم يموت، فاذا مات انتهت طلاوة كلامه، وحلاوة منطقه، ولم يعد الناس يتاثرون ما يقول، «قالوا شاعر نتربص به ريب المنون..»

ثانيا: المستعلون من غير حق كالفراعنه والجبابرة والطغاة المختلفين على مد التاريخ، مثل نمرود وفرعون، ففي قصة ابراهيم «ع» يقص لنا القرآن الكريم موقف نمرود «الم ترى الى الذي حاج ابراهيم في ربه ان آتاه الله الملك، اذ قال ابراهيم، ربي الذي يحي ويميت، قال انا احي واميت قال ابراهيم فان الله ياتي بالشمس من الشرق فات بها من الغرب فبهت الذي كفر...» ذكر ابراهيم «ع» ان الله هو الذي خلق الموت والحياة، وهو الذي يقدرهما، لكن نمرود انطلاقا لكما الكبرياء في الارض..» وايضا من تجبره حاول التشويش على هذا المفهوم الالهي في اذهان العامة، فصرفه وفسره بشكل يمكن ان يغري كثيرا من الجهلة مدعيا بأن بامكانه ان يقتل الناس او ان يتركهم يعيشون. ولما لم يكن لابراهيم «ع» متسع من الوقت ليجلي هذا المفهوم في أذهان المشاهدين في تلك المسرحية التي أطلقوا عليها المحاكمة، عدل عن الكلام فيه الى أمر محسوس عند الجميع غير قابل للتاويل، وهو ظاهرة الشروق والغروب، طالبا من ذلك المعتز بنفسه ان يبدل المجرى الكوني بهذه الظاهرة ان كان ما يدعيه من الربوبية حقا، وفي خطبة موسى وهارون «ع» نجد ان القرآن الكريم يقص لنا شيئا من مواقف فرعون وإدعائه وعناده في خصومة الانبياء، «وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري، فاوقد لي يا هامان على الطين، فاجعل لي صرحا لعلي اطلع الى اله موسى ، واني لأظنه من الكافرين واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون» فرعون يقول ما علم لكم ايها الشعب اله غيره، ولم يعلم المصريين اله غيره.

لنعود الآن الى مكة ونرى مشركي العرب ومشركي قريش يجمعون كل مزاعم فئات الشرك والكفر التي مرت في عهود السابقة ضد النبوة الخاتمة، ضد محمد «ص».

أولا: ان هذه النبوة ليست سماوية وانما بشرية، وان هناك افرادا من خارج الحدود تغذي محمد وتكتب له القرآن «لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين..» فالقرآن ليس وحيا من السماء وانما هو فعل بشري خالص (ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر..» وعندما نأتي الى طلعاتهم من الرسول «ص» نجدها قد جمعت فيها كل تطلعات الفئات الكافرة في الازمان السابقة «قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تاتي بالله والملائكة قبيلا او تكون لك كنز او يكون لك بيت من زخرف او ترقى الى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقراه..» فالذي منعهم من الايمان بموجب هذه الطلبات، اولا: ليس محمد غنيا له البيوت والبساتين، بل كان ينبغي ان ينزل القرآن على غنى من الاغنياء «قالوا لولا انزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم..»

ثانيا: انه بشر وكيف يدعوهم لعبادة الله، فلماذا لا يأتي لهم بالملائكة؟ حتى يؤمنون بكلامه، «ومامنع الناس ان يؤمنوا اذا جاءهم الهدى الا ان قالوا ابعث الله بشرا رسولا..»

وكذلك مشركي قريش لا يؤمنون بالبعث كالملحدين، يشاركونهم في هذه الناحية، «وقالوا اذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعثون خلقا جديدا..» ويزيد مشركو العرب في مزاعمهم ضد النبوة خطر الاحتلال من الدول المجاورة، فيشيعون عند أهل مكة خاصة وعند العرب عاما، باننا لو آمنا بمحمد واحست بنا دولة الفرس والروم لقامت باحتلال ارضنا واستعبادنا «قالوا ان نتبعك نتخطف من حولنا..» ونحن اذا تعمقنا في هذه الفئات المختلفة التي مررنا عليها بتلخيص عن مواقفنا مع انبيائنا نجد انها تشترك في خطوط عامة ومزاعم عامة اطلقت في كل جيل من اجيال النبوات وضد كل نبي، وهذه المزاعم اولا: ان الانبياء رجال يسعون ليتآمروا على الناس، فهم طلاب زعامة. ثانيا: انهم يحدون من حريات الافراد، وحقهم في التصرف في اموالهم وما يملكون، ثالثا: ان كل ما يفعلون ويقولون مختلق من عند انفسهم اي القول ببشرية الكتاب، رابعا: ان دعوات الانبياء دعوات خرافية لانها تبشر بحياة اخرى، خامسا: ان الانبياء قوم مسحورون، او شعراء محلقون في الخيال او مجانين.

فهذه هي الخطوط العامة بين اعداء النبوات، وهناك خطوط خاصة تميز بين كل فئة عن الأخرى ليس هذا مجال دراستها.

أعداء الأنبياء يشتركون في مزاعم عامة تطلق ضد كل نبي في كل زمان ومكان

الدعوة الالهية هي الدعوة المتمثلة في الاسلام وهي واحدة على اختلاف الأزمنة